

بشير حادي الدين بصفتي القبول في بيروت
أولئك الذين هم أولو الألباب

الجزء
١٣١٥

بناظر الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة
غيا كثيرا وما يذكروا إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوي و ٥ بناورا ٥ كنهوا بالطريق

(مصر ٣٠ المحرم ١٣٣١ ق ١٩ الشتاء الاول ١٢٩١ هـ ش ٨ يناير ١٩١٣ م)

فاتحة السنة السادسة عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه ، والصلاة والسلام
على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه ، وبعد فقد جرت عادتنا ان نشير
في فوائح سنني المنار ، الى شيء من تاريخه أو تاريخ الإصلاح ، أو حال
به في عالم الاسلام ، ونقول الآن على رأس السنة السادسة عشرة ان
صوت الإصلاح الديني قد علا كل صوت في الاقطار الاسلامية التي
بلغتها دعوته ، وهزتها صيحته ، نفقت دونه أصوات الحشوية الجامدين ،
والدجاجلة المخرفين ، وقد خذل الله بيروت في العام الماضي أشدهم إفكاً

وتحريفنا ، فيما يسميه نظماً وتأليفاً ، نخذته الخلاصة ، ولم تنصره العامة ، وعورض ما يفتره من الرؤى والأحلام ، بشيوع خبر رؤيين راهبا بمض الصالحين من الحجاج ، فقد حدثني الفقه المتفق على توثيقه في بيروت ، قال : لما عاد والدي من الحجاز عام حجة جاء (الشيخ فلان) للسلام عليه وكان يعد من أصدقائه وأقبل بلهف ودهشة ليمانه ، فصاح به والدي يا شيخ فلان — وذكر اسمه — ان النبي صلى الله عليه وسلم غير راض عنك ، فقد رأته عند زيارته في المدينة المنورة في الرؤيا وأمرني أن أبلغك انه غير راض عنك . وأما الرؤيا الأخرى فقد رويت لي عن رجل من الحجاج أعطاه ذلك الدجال نسخاً من كتبه ليوزعها في المدينة المنورة فرأى النبي (ص) في نومه قبل دخول المدينة ليلة واحدة يقول له ان هذه الكتب غير مقبولة . فلما استيقظ ألقى تلك الكتب أو دفنها في جانب الطريق . فمثل هاتين الرؤيين ، من دينك الحاجين الصالحين ، نقض ما يدعيه ذلك الدجال من الرؤى التي هو متهم فيها بتعظيم شأن نفسه ، والتهميد لدعوى الولاية له ولولده ، وتحقير من اتخذهم أعداء له ، لأنهم ينيرون عقول الأمة حتى لا تقتر بئله هذا إجماعاً الى مبادئ عاقبة دجال القطر السوري المجاهر بمداوة الإصلاح وأهله ، ولا تكبر شأنه بالرد عليه أو التصريح باسمه ، وقد خفت أيضاً صوت دجال (جاوه) وظهر جهله ، وما أبقى عليه تكريم حكومة هولندية بل نسبه وسنه ، ودجال تونس المقيم ، بمدود عند عقلاء بلده من المجاذيب أو المجانين ، ولو كان في تونس حرية لحزب الإصلاح ، كالحرية الشاملة لأهل اليهود والفساد ، لرأى العالم الاسلامي من تونس ما لم يروه من سائر الاقطار ، وأما دجالها المتقلب في البلاد ، كتقلبه في الآراء

(التارخ ١ م ١٦) قوة المصلحين على قلتهم وضعف الدجاجة على كثرتهم ٣

والافكار ، فهو يتبع . واقع الصيت والاشتهار ، ويتأيا مساقط الدرهم والدينار ، فيدور مع من يملك ذلك حيثما دار ، حتى انه أفنى بجواز بناء الكنائس للروم والبلغار ، والاتفاق على ذلك من بيت المال ، فقال الخطوي ، عثل هذه الفتوى ، عند زعماء جمعية الأتحاد والترقي ، واصطنعوه لكل مايقنون من الخداع الديني . وقد خذلهم الله ولم يعتبر المسكين ، (وأملى لهم ان كيدي متين)

هذه حال المجاهرين بمقاومة الاصلاح الديني وأهله ، لاصوت لأحد منهم يسمع ، ولا رأي لهم يتبع ، وانما يفترون بكثرة من يصدق الخرافات ، ويسلم كل مايعزى الى الاموات ، تقليدا للآباء والامهات ، وهواتاة للاتراب واللدات ، ويحسبون هذا اتباعا لهم ، ويمدون أهله من أشياعهم ، فيفتنون بكثرتهم ، ويهونون أمر المصلحين لقتهم ، وقلة من يهتدي بهم ، ولو فكروا وقدروا ، وتدبروا واعتبروا ، لرأوا ان هذه القلة هي محل الرجاء ، وتلك الكثرة كالنشاء أو الهباء ، وانها تنفت كل يوم من أيديهم كما تنفت الابل من عقليا ، بل من جامعة الاسلام التي عرفوا اسمها وجعلوا حدها وفصلها ، فكثرة أشياع الخرافات الى قلة ، وقلة حزب المصلحين الى كثرة ، وقد فطن هرقل ملك الروم ، لهذا الامر الذي جهاه المغرورون ، فسأل عن أتباع النبي (ص) أيزيدون أم ينقصون ، فلما علم أنهم على قلتهم في ازدياد ، وان من دخل فيهم لا يخرج منهم ، تلم أنهم حزب الله الغالبون

ولو رجع أولئك الدجالون البصر ، وكرروا التأمل والنظر ، لرأوا أن هؤلاء الهوام ، الذين لم تبلمهم حقيقة دعوة الاصلاح ، أو صدم عن

النظر فيها سدنة القبور المعبودة وتجار الولاية، والصالح، هم الذين يتسللون يوماً بعد يوم مما يسمى الإسلام التقليدي، ولا يهتدون السبيل إلى حقيقة الإسلام البرهاني، فأكثرهم يفتنون بالشبهات المادية، التي يدها فيهم حملة قشور العلوم المصرية، ومنهم من يشكون في الإسلام بمطاعن دعاة النصرانية، فأبال زعماء الدجل والخرافات، لا يتصدون للرد على تلك الشبهات، وأتى لهم الرد عليها وهم لا يعرفون مواردها ومصادرها، ولا يقفون على شيء من العلوم المتولدة هي منها، ولا يعززون بين أصول الإسلام التي يجب الدفاع عنها، والخرافات والاهام الملتصقة بها، وإنما قصارى ما عندهم أن يقولوا للعوام أن جميع العلوم الطبيعية باطلة، وأن تعلمها كفر ومظلمية زنادقة، ويريدون أن يتلقى الناس قولهم هذا بالقبول والتسليم، كما يوجبون عليهم قبول جميع ما يقولون أنه من الدين، على أنهم يعظمون الحكام والأغنياء المتعالمين لتلك العلوم، فهل يرضى أحد بأن يكون من هؤلاء في مكان التقليد من الإمام المصنوم، ؟ كلا إننا نرى كثيراً من المتعلمين في المدارس المصرية، يعدون خرافات أمثال هؤلاء الدجالين حجة على جميع العلوم الإسلامية، فهم لذلك يصدون عنها، ويمدّون من إضاعة الوقت النظر في شيء منها.

يزعم هؤلاء الدجالون أن الضلال كل الضلال هو ما يدعو إليه المصلحون من سبهي الكتاب والسنة، على النحو الذي كان عليه الصدر الأول من الأمة، ونبذ كل ما استحدثه الخلف، مخالفاً لما كان عليه السلف، عملاً بقوله (ص) « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » رواه الشيخان وأبو داود وابن ماجه من حديث عائشة، وقد جعلوا همهم الطعن

في دعاء هذا الاصلاح، ورميهم بحجارة الزور والبهتان، وأكبر شبهتهم ان هذا من الاجتهاد، الذي انقطع فضل الله به عن العباد، وان كتاب الله الذي أنزله هدى للعالمين، ووصفه بالتبيان والمبين، لم يتبين معناه إلا للأفراد الاقايين، الذين وصفوا بالأمعة المجتهدين، حتى أنهم لو لم يوجدوا لما أمكن لأحد ان يكون من المسلمين، وان سنة الرسول (ص) لا تكفي في بيان كتاب الله من دون علمهم، وان قال الله تعالى (۱۶ : ۴۴)
 وأنزلنا اليك الكتاب لنتبين للناس ما نزل اليهم) !! فان لم يكن قد بينه كما أمر الله، فكيف يكون قد بلغ رسالة الله؟ وهل يعقل ان يكون عجز عن ذلك وقدر عليه سواه؟ معاذ الله وحاش لله .

ألا إن هؤلاء ليسوا من أهل البصيرة والاستدلال، فنجذبهم بالحجة أو ندمغهم بالبرهان، وانما نريد بمثل هذا الكلام، ان نذكر من لهم نصيب من الاستقلال، بأن مقلدة أمثال هؤلاء المساكين، كلهم عرضة للمروق من الدين، وأنهم لو كانوا يغارون عليهم وعلى دينهم لجلوا همهم في وقايتهم من الكفر والايحاد، لا في وقايتهم من هدي السنة وهدى القرآن، وحصر واغنايتهم في كشف الشبهات التي تخرجهم من حظيرة الاسلام، لا في نشر الخرافات التي تحصرهم في زرية الاوهام، ولكن يظهر ان ترك الاسلام ألبتة، أهون عليهم من ترك التقليد الاعمى الى هداية الكتاب والسنة، ولذلك نراهم يدهنون للمارقين من أصحاب المال والجاه، ويثنون عليهم بالاستسنة والاقلام، ولا تظهر غيرتهم على الدين، إلا في تضليل حماة الدين، ونحوه تعالى أن خذلهم وكبتهم، وصرف قلوب الناس عما تزور أقلامهم وتفتري ألسنتهم، هذا وإن الاسلام ليشكو اليوم من شيطان الافساد السيامي، مالا

يشكو من شيطان الإفساد الديني ، فقد غلب على مقام أولي الامر ، زعينة من عبدة الطاغوت والشمر ، جعلوا المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، وأرهبوا الأمة قتلاً وجبساً ومصادرةً وتخويناً ، يأكلون تراث الأمة أكلالاً ، ويجبون المال جباً جباً ، اذا دعوتهم الى الحق ولو امنك فراراً ، وجعلوا أصابهم في آذانهم واستفشوا ثيابهم وأصرروا واستكبروا استكباراً ، وقد مكروا بأناس استخدموهم لغش الساميين مكرًا كبيراً ، فآبىوا من لم يزد ماله وجهه الا خساراً ، وكان من كيدهم ومكرهم ، وعند الله عاقبة مكرهم ، أنهم وقد عجزوا عن إسكان حركة الإصلاح ، وإسكات نداء دعائه حيي على الفلاح ، أرادوا إفساد أمرها ، بتوسيدها الى غير أهلها ، من المنافقين المتزلفين اليهم ، الراضين ان يكونوا آلات في أيديهم ، فنصروا هؤلاء على أبناء بجدتها ، وآباء عذرتها ، كما وسدت صروف الزمان اليهم من الامر ، ما ليسوا له بأهل ، فذنت بذلك ساعة الأمة ، وقد جاء اشراطها ولا تلبث ان تأتي بقتة ، قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم « اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظروا الساعة » رواه البخاري في صحيحه .

هذا هو الصر في تناقض بعض الصحف التي ظهرت بعد ظهور الفئة الباغية ، والجمية الطاغية ، الاسلامية في الظاهر ، الاتحادية في الباطن ، إذ تمدح الاسلام وتنفر عن الاعمال التي تحييه وتطمئن في القاعين بها ، وتدعو الى الجامعة الاسلامية وتلقي الشقاق بين العاملين لها ، ويزاحم أهلها المصلحين ، وهم أعوان المفسدين ، ومنهم من تخدع رؤيته ، وفتن خلخته ، ويفر بركائه أو تباكيه ، والمنافق يملك عينيه فيكي بهما متى شاء فكم أذرى الدموع لهب مال وكم أبدى الخشوع لنيل جاه

ومنهم من لا علم المنفرون بورقته، حقيقة حاله في علمه وعمله وعقيدته،
 فلو آمنه فرارا، وأعرضوا ازورارا، واستصغروا أنفسهم استصغارا،
 لتعجبهم باتباع كل ناعق، وعدم التزليل بين الصادق والمنافق، وستظهر
 للجميع الحقائق، فقبل الكذب وان طال قصير، ومصير المنافقين
 شر مصير. وانما نخشى ان لا تظهر العبرة، الا بعد خراب البصرة، وأن
 يأخذ الله المسلمين كافة، بما جتته تلك الفئة الباغية (وَأْتُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

ذلك بان الامة تحتاج الى ضروب من الاصلاح يمد بعضها بعضها
 وأصولها خمسة الديني والعلمي والاجتماعي والسياسي والمالي، وقد
 تداعت هذه الاصول كلها في العالم الاسلامي، ولا يسهل اقلمة بعضها،
 الا باقامة باقيها، لهذا أردنا عند ملاحظتنا من الاستانة بارقة الامل في
 الاصلاح السياسي، أن ننشي فيها عملا كبيرا من الاصلاح الديني والعلمي،
 الذي هو أكبر عون على غيره ولا سيما الاصلاح الاجتماعي، فعلمنا أن ما
 لاح لنا كان برقا خلبا، وسرابا ببيعة يحسبه الظلمان ماء حتى اذا جاءه لم
 يجده شيئا، بل تبين لنا أن مثل ذلك البلاء النازل، الذي تراهي بصورة
 الاصلاح الخلدع، كمثل ذلك العذاب الذي نزل بصورة المراض،
 (٢٤:٤٦) فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا،
 بل هو ما استجبتم به ريح فيها عذاب اليم ٢٥ تدمر كل شيء بأمر ربها
 فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم، كذلك يجزي القوم المجرمين) .

أجل ان هذا العذاب، ليمثل ذلك الانقلاب، الذي حسبنا ان وراءه
 ما نرجو من الاصلاح، فكان بسوء تصرف ذويه عين الافساد، وقد

أندرتنا الأمة سوء عاقبته ، وخطر مغبته ، فماروا بالنذر : (٣.٥٤) وكذبوا
واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٤) ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه
مُزْدَجِر (٥) حكمةً بالغةً فما تغي النذر) وقد هزم الجحيم وولوا الدُّبُر ،
فبأيِّ القول والفعل بعد ذلك يُعتبر ، فإن لم يتدارك الأمر أهل البصيرة
والنظر ، فلانجاة بعد ذلك ولا مفر (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى
وأمر) لا أريد الإشارة إلى قيامة الناس كافة ، بل أريد قيامة هذه الأمة
خاصة ، فإذا هي فقدت هذا الرمتق من استقلالها ، وزال هذا السماء
الذي تتردد به أنفاسها ، فأي نوع تلكه بعده من أنواع إصلاحها ؟
فليس الخطر الذي نخشاه اليوم على الإسلام ، هو كيد المفسدين
لدعاة الإصلاح ، بأغراء غير أهله بالدعوة إليه ، لمعارضة المظالمين بالقيام
به ، واستئجارهم المنافقين ، وأيديهم على الصادقين ، مع عدم تمييز الأكثرين ،
بين المحققين والمبطلين ، ولا نحو ذلك من أعمال هؤلاء الذين طفوا في
البلاد ، فأكثرها فيها الفساد ، وإنما الخطر الأكبر هو إفسادهم السياسي
الذي فتح علينا باب المسألة الشرقية ، فبدأ بمسألة طرابلس الغرب
الأفريقية ، وثنى بولايات الدولة الأوربية ، ويخشى أن يثت بالولايات
الاسيوية ، ولا ينفعا يومئذ ظهور صدقنا وكذبهم ، ونصصنا ونعشم ،
لأن الأمر يخرج من أيدينا وأيديهم ، إلى من لا يرحمنا ولا يرحمهم ، على
أن زعماء هذه الفتنة ، ومبسلي هذه الأمة ، لاحظ لهم من الحياة إلا الجاه
والمال ، فإذا فاتهم الأول بفقد الاستقلال ، فإن لهم من الآخر ما يتعمم
بسائر اللذات ، ولم يدرك هذا الخطر مقاومة أهل الاخلاص لهم ، وانزاعهم
تلك المقاليد من أيديهم ، على أنه لا يبعد أن تعود اليهم ، فتكون الكرة

الثانية ، هي الطامة القاضية ، ولا يدروها من بعد ، مثل ما كان من قبل ،
وانما يرجى ان يدرا البدار الى تقوية كل قطر من الملكة في نفسه ،
وتوطد الدفاع عنه وإقامة العمران فيه بأهله ، وهو ما يمبرون عنه بالندافة المليئة ،
والادارة اللامر كزية ، ثم بناء المصلحة العامة على قواعد الصدق والاخلاص ،
فاذا لم تنفق الامة والدولة على هذا فلي الامة والدولة السلام .

(الدعوة الى اتقاد النار)

ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض في الاسلام هو سياجه وحفاظه
ان تعدى حدوده بين أهله ، كما ان الجهاد سياجه وحفاظه ان يمتدي عليه غير
أهله ، وقد قصر المسلمون في الفر يرضين فكان عاقبة أمرهم ما نسمع ونرى ونذوقه
فالنار يدعو كل من يطلع عليه ويرى فيه خطأ أن يبينه لنا بالمشافة ان كان ممن
يقاننا ونلقاه ، والا فبالكتابة . والطريقة المثلى في ذلك ان يقال ان في صفحة كذا
من جزء كذا خطأ . ويبين ذلك الخطأ وصوابه بالدليل ، من غير استطراد ولا
تطويل ، ونحن نرجع الى الصواب ان ظهر لنا ، أو نبين ما عندنا في المسألة .
هذه هي طريقة الامر والنهي ، والتواصي بالحق والصبر ، لا ما ينتهب اليه
أهل الأهواء الذين يجهلون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا . وهو أنهم اذا وأوا
أو سمعوا - ولو كذبا - أن أخذهم الخطأ في شيء أشاعوا ذلك بين الناس بالتقول
والكتابة فيدري بذلك الخطأ من يقونه ذونه ، وربما كان ذلك منكرا أو شبهة على
الدين تعلق في نفس المستمع ولا يدري كيف ينقص منها . وكثيرا ما يكونون هم
الخطئين . ومنهم من يصدق عليهم قول الشاعر :

إن يسمعوا الخير أحقره وإن سمعوا شرا أذاعوا وإن لم يسمعوا كذبوا

فن اقبل من أهل التقوى والاخلاص ، من هؤلاء الذين يؤسسون في حدود
الناس بدم أو يسب أو يطمس ، من يدعي عليه انه خطأ ، فليقل له ان هذه غيبة
يفسق صاحبها ، لانصيحة يتبع قائمها ، فان كان فلان خطأ فذكوه يترك وينتبه
فان لم يرجع فهو شيطان ، فأعرض عنه وتقل سلام محمد رشيد رضا الحسيني